الباب الرابع

الفتح العثمانى

القدس فى عهد الأتراك العثمانيين — القدس وإبراهيم باشا — القدس والأتراك العثمانيون (للمرة الثانية) .

القدس فى عهد الأتراك العثمانيين
(من ١٥١٧ م — إلى ١٨٣١ م)

احتل السلطان سليم الملقب بياوز القدس (١٥١٧ م [١]) بعد أن تغلب على المماليك فى معركة (مرج دابق) ، وقتل سلطانهم طومان باى ، واحتل حلب وحمص وحماه وسائر بلاد الشام . ومنها سار إلى مصر ، فاحتلها . وتخلى له آخر الخلفاء العباسيين ، محمد المتوكل على الله ، عن الخلافة . وسلمه مفاتيح الحرمين . فأصبح الآمر الناهى فى تركيا ومصر والشام . وأقام على الشام نائباً للسلطنة هو : جان بردى الغزالى [٢] . وكانت القدس من أعماله .

عند ما دخل السلطان سليم القدس زار قبور الأنبياء ورأى الأماكن المقدسة والآثار القديمة . وأتاه وهو فى القدس سفير من إسبانيا يحمل رجاء مليكها . فقبل رجاءه ، وأتاح للنصارى الحج إلى بيت المقدس على شريطة أن يؤدوا الرسم الذى كانوا يؤدونه فى زمن المماليك ، وقد أولم له سكان المدينة وليمة أقاموها فى الفناء الواسع حول الصخرة . وأتوا له وبجنده بالطعام فى أوان تسمى (الهنايب) فتساءل عن السبب . فقيل له : إنا قوم فقراء . ثم بحثوا له عن تسلط العربان وسكان القرى المجاورة . فاعتزم عمارة السور . ولكنه رجع إلى عاصمة ملكه القسطنطينية ، وتوفاه الله ، قبل أن يتمكن من تعميره . ولما توفى (١٥٢٠ م)

---

(١) هذا ما اتفق عليه أكثر المؤرخين . وأما المستر ريشموند E. T. Richmond فقد قال فى كتابه The Dome of the Rock ص ٣٧ إن القدس فتحت عام ١٥١٢ م .

(٢) (عثمانلى تاريخى) للمؤرخ التركى أحمد راسم ص ٢٠٠ .

تبوأ العرش ولده السلطان سليمان الأول الملقب بالقانونى . وعلى عهده قامت بالقدس منشآت كثيرة ، نذكر منها :

أنه هو الذى جدد عمارة السور . وقد دامت عمارته خمسة أعوام (١٥٣٦ — ١٥٤٠ م) . ورمم القلعة (١٥٣١ م) . وأنشأ البرج الكائن على يمين الداخل من باب الخليل (١٥٣٨ م) . وعمر بركة السلطان على طريق المحطة . والسبيل الواقع قبالة البركة المذكورة . والسبل الكائنة بباب السلسلة أمام المدرسة التنكزية ، وفى طريق الواد ، وفى ساحة الحرم إلى الشمال من باب شرف الأنبياء ، وفى طريق باب الناظر ، وبالقرب من باب الأسباط (١٥٣٦ م) . وقد عمر قبة الصخرة (١٥٤٢ م) ، وأعاد تبليطها . وعمر جدران الحرم وأبوابه . وسد الباب الذهبى من أبواب الحرم ، وفتح الباب المعروف بباب (ستنا مريم) . وجدد القاشانى الكائن فى قبة السلسلة (١٥٦١ م) . وعلى عهده أنشئت التكية المعروفة بتكية خاصكى سلطان فى عقبة المفتى . أنشأتها زوجته الروسية روكسيلانة (١٥٥٢ م) . والمدرسة الرصاصية بحارة الواد (١٥٤٠ م) . أنشأها الأمير بايرام جاويش الذى كان مناظراً لعمارة السور .

وأنشىء مسجد الطور (١٥٣٧ م) فى المكان الذى تقوم عليه كنيسة الصعود . وهو الذى عهد بحراسة الدرب السلطانى بين القدس ويافا إلى آل أبى غوش ، وأجازهم أن يحصلوا من السياح بعض العوائد (١٥٢٠ م) .

وعلى عهده سكت فلوس جديدة سميت باسمه . وفرضت على الحجاج المسيحيين رسوم يدفعونها لدى ولوجهم كنيسة القيامة .

ولقد تولى السلطنة بعده ابنه السلطان سليم الثانى (١٥٦٦ م) . فالسلطان مراد الثالث بن سليم الثانى (١٥٧٤ م) . فالسلطان محمد الثالث بن مراد الثالث (١٥٩٤ م) . فالسلطان أحمد الأول بن محمد الثالث (١٦٠٣ م) . وعلى عهده عرف الناس التبغ لأول مرة ، واستعملوه فى هذه البلاد (١٦٠٣م) . وحُرِّم

بيع الخمور فى القدس وفى جميع أنحاء المملكة (١٦١٣ م) .

ثم جاء السلطان مصطفى الأول بن محمد الثالث (١٦١٧ م) . فالسلطان عثمان الثانى بن أحمد الأول (١٦١٧ م) . فالسلطان مصطفى الأول للمرة الثانية (١٦٢١ م) . ولم يرد ذكر كثير للقدس فى أيام هؤلاء السلاطين .

وأما فى زمن السلطان مراد الرابع (١٦٢٢) ، فقد كانت القدس تابعة لمصر . ولقد حدثت فيها حوادث تستحق الذكر : منها أنه حظر على الناس شرب القهوة ، وتدخين التبغ (١٦٣٣ م) . واختل الأمن ؛ فراح الأشقياء يقطعون الطرق ، ويخربون ينابيع المياه . وذلك قد حدا بالسلطان لإقامة قلعة سميت باسمه (قلعة مراد) عند برك سليمان على طريق الخليل . وأنشأ فى داخلها مسجداً وخمسين منزلا لسكنى الجند . وكان يقوم على حراستها دزدار ، وأربعون جندياً مسلحين بالمدافع والأسلحة الكاملة .

بعد السلطان مراد الرابع تولى السلطنة إبراهيم بن أحمد الأول (١٦٣٩ م) . ثم تولاها ابنه السلطان محمد الرابع (١٦٤٨ م) . وعلى عهده بنيت المئذنة الكائنة بداخل القلعة (١٦٥٥ م) . وأنشىء المصلى الكائن بجانب سبيل شعلان فى الحرم القدسى ١٦٥١ م .

إن أحسن وصف للقدس فى ذلك العهد نجده فى مخطوط للسائح التركى الشهير (أولياجلبي) . فقد زارها حوالى سنة ١٦٧٠ للميلاد ، ووصفها وصفاً جيداً . فمدح خبزها وثمارها وخضرها . ويبدو أنها اشتهرت يومئذ بمسكها وعطرها وبخورها ومباخرها النحاسية . وكان فيها ألفان وخمسة وأربعون دكاناً ، وستة خانات عظيمة ، ومحتسب ، وأسواق ، وثلاثة وأربعون ألف كرم . ورأى فى وسط هذه الكروم زهاء ألف وخمسمئة منظرة . وكان يسكنها ستة وأربعون ألف نسمة أكثرهم عرب مسلمون . وكان فيها كنيس للأرمن ، وثلاث كنائس للروم ، وكنيسان لليهود ، ومئتان وأربعون محراباً للصلاة ، وسبع دور للحديث ،

وعشر دور للقرآن ، وأربعون مدرسة للبنين . وستة حمامات ، وثمانية عشر سبيلا يشرب الماء منها العطشان ، وتكايا لسبعين طريقة منها الكيلانية والبدوية والسعدية والرفاعية والمولوية .

ويظهر مما كتبه هذا السائح وغيره من السياح الأجانب أن كل شيء فى القدس كان يومئذ على غاية ما يرام ، خلا (الأمن) . فقد كان هذا مفقوداً ، ولا سيما خارج أسوار القدس . وكانت القدس تابعة لطرابلس الشام .

وفى عام ١٦٨٧ م تولى السلطنة السلطان سليمان الثانى بن إبراهيم . ثم تولاها أخوه السلطان أحمد الثانى (١٦٩٠ م) . فالسلطان مصطفى الثانى بن محمد الرابع (١٦٩٤ م) . فالسلطان أحمد الثالث (١٧٠٣ م) . وعلى عهده ثار على الدولة نقيب الأشراف فى القدس السيد محمد (١٧٠٥ م) فساقت عليه جيشاً من الشام وأخمدت ثورته . وكانت القدس يومئذ تابعة لأيالة صيدا وعكا . ثم جاء السلطان محمود الأول بن مصطفى الثانى (١٧٣٠ م) . وعلى عهده تجدد بناء حائط الخندق (١٧٣١ م) ، وعمارة مسجد القلعة (١٧٣٨ م) . وكانت القدس يومئذ تابعة للشام . ثم جاء السلطان عثمان الثالث (١٧٥٤ م) . فالسلطان مصطفى الثالث بن أحمد الثالث (١٧٥٧ م) . فأخوه السلطان عبد الحميد الأول (١٧٧٣ م) . فالسلطان سليم الثالث بن مصطفى الثالث (١٧٨٨ م) .

وعلى عهد هذا السلطان غزا نابوليون هذه البلاد (١٧٩٩ م) [1] وذاقت

---

(١) كان نابوليون يعتقد أن من يحتل مصر لا يكون آمناً فيها إلا إذا احتل أرض الشام . إنه وإن كان قال فى بيانه الذى أذاعه على السكان أنه ما جاء إلى هذه البلاد إلا ليقهر الجزار ، إلا أنه فى الحقيقة كان يرمى إلى التحالف مع الطوائف المنتشرة فى سوريا ضد الترك والحيلولة دون رجوع مصر لأحضان تركيا .

بعد أن احتل نابليون غزة ويافا والرملة كان الناس يظنون أنه لا بد وأن يولى وجهه شطر بيت المقدس ليفتحها ؛ حتى إن الأتراك سجنوا فى كنيسة القيامة جميع الروم الأرثوذكس . ولكنه لم يفعل . بل أجاب الذين سألوه عن أهدافه : « . . . أن القدس غير مذكورة فى الخطة التى رسمتها . . إنى

من جراء حكم أحمد باشا الجزار (١٧٨٦ م)[1] ومحمد باشا أبو المرق ما ذاقت . وهذا مما حمل الأشراف وسادات البلاد على أن يبيعوا أولادهم فى السوق بيع العبيد .

بعد السلطان سليم الثالث تولى الملك السلطان مصطفى الرابع بن عبد الحميد الأول (١٨٠٧ م) فأخوه السلطان محمود الثانى (١٨٠٨ م) . وعلى عهده وقعت فى القدس وقائع ، نذكر منها أنه هو الذى ألغى نظام (الانكشارية) وطارد رجالها مطاردة لا هوادة فيها . حتى إنه منع الناس من ذكرهم (١٨١٩)[2] ومنع المسيحيين الأرثوذكسيين (١٨٢٠ م) من تعمير معابدهم ؛ إذ أنه كان

= لا أريد التحرش بسكان الجبال والتوغل فى مآزق يصعب الخروج منها ...» والحقيقة أن اهتمام نابوليون كان منصباً على المواقع ذات الأهمية الحربية . وما كانت للقدس يومئذ تلك الأهمية .

ومن قائل إنه كتب إلى أهل القدس رسائل طلب إليهم فيها أن يخضعوا لأوامره . فأجابوه أنهم تابعون لأيالة عكا . فالذى يحتل عكا ويصدر أوامره منها يخضعون لأوامره ؛ وهم لا يريدون أن ينخرطوا فى حرب أو ضرب . لأنهم يعيشون فى بلد طافح بالأماكن المقدسة ،فانصرف إلى عكا ، يريد أن يحتلها . وكان الجزار قد تحصن فيها . إلا أنه لم ينجح ، ورجع إلى مصر مدحوراً (١٧٩٩ م) .

(١) ولد الجزار سنة ١٧٢٠ فى إحدى قرى البوسنة . وهرب وهو شاب يافع من بلاده إلى الآستانة . ومنها إلى مصر حيث بيع فيها بيع العبيد . واستخدمه (أحمد بك أبو الذهب) فى قصره ، فقتك بأعدائه ولقب بالجزار . وعهدت إليه الحكومة العثمانية بعدئذ بولاية بيروت (١٧٧٦ م) فما كاد يتسلمها حتى أعلن الثورة ضد الدولة . ويظهر أن الدولة رأت من مصلحتها أن تستميله إلى جانبها ، فجعلته وزيراً ووسعت سلطته من الشام إلى غزة وعريش مصر . الأمر الذى اتخذه نابوليون ذريعة لفتح هذه البلاد (١٧٩٩ م) .

ولما اندحر نابوليون ، ازداد الجزار عتلا . فعاد يمثل مظالمه ، لا فرق فى نظره بين مسلم ومسيحى ويهودى .

وظلت البلاد تذوق الأمرين من جراء فعاله إلى أن مات فى عكا (١٨٠٤ م) ودفن بها .

(٢) ذكرنا فى كتابنا المفصل عن (تاريخ القدس) الشىء الكثير عن (ثورة الانكشارية) تلك الثورة التى وقعت فى ١٨١٩ م . وعما فعلته السلطات التركية من أجل إخماد تلك الثورة والقضاء على رجالها . ونود أن نلخص هنا ما قلناه هناك بوجه التفصيل ، فنقول :

« حاصر رجال الانكشارية متسلم القدس (مصطفى آغا الطزيني) فى مكتبه بدار الحكومة . فطلبوا منه بتحريض من الأرمن أن يوقف الروم عند حدهم ، وأن يمنعهم عن الاستمرار فى عمارة الكنيسة . تلك الكنيسة التى كان الأرمن قد حرقوها (١٨٠٨ م) . وأصر الانكشاريون على=

يكرههم ، ولا سيما من كان منهم يونانى الأصل(١) . وسمح للاتين ببناء غرف جديدة فى ديرهم ، وتعمير ما يخصهم فى كنيسة القيامة . وأمر المسلمين من سكان بيت المقدس أن يخلعوا عن رؤوسهم (القاووقة) التى كانوا يلبسونها حتى ذلك التاريخ . ووضعت القدس والشام معاً تحت تصرف عبد الله باشا والى عكا .

ويظهر أن صلات هذا الباشا مع الحكومة المركزية فى القسطنطينية كانت سيئة لدرجة أنها حرضت عليه فى بادئ الأمر ولاة الشام وطرابلس وحلب . ثم عادت ، فعفت عنه . ولكنها أخذت القدس منه ، فجعلتها تابعة للشام . وكان على الشام وال اسمه مصطفى باشا . وكان هذا ظالماً . ففرض على الناس ضرائب لا عهد لهم بمثلها من قبل . فقامت فى القدس اضطرابات . وعقب

= أن يتولوا هم حماية القلعة بدلا من الجند الذين أرسلوا من الشام . وهددوه بالقتل إذا هو لم يذعن لمطالبهم .

فاستمهلهم المتسلم ريثما يستشير يوسف باشا فى الشام . وقبل أن يأتى الجواب راحوا يعملون يد النهب والتخريب فى الروم ودورهم . وفيما كانت الثورة التى أوقدوا نارها متأججة كان المدد قد أتى من الشام . وعدد من الخيالة المغاربة قد وصلوا بقيادة (أبى ذريعة) . فدخلوا المدينة ليلا من الباب المعروف بباب الأسباط . وما كاد فجر اليوم التالى ينبلج حتى كان معظم الثوار قد وقعوا فى الشرك . فألقى القبض عليهم ، ونكل بهم تنكيلا . وقيل إن المتسلم وحده خنق بيده ٣٨ رجلا من رؤوس الفتنة فى ليلة واحدة » .

(١) ذلك لأنهم راحوا يعضدون (اليونان) الذين نادوا باستقلال بلادهم عن تركيا (١٨٢٠) . وقد ناشد السلطان محمود الأهالى أن يكونوا على حذر من الروم ، وأن يتسلحوا ، وأن يعرفوا كيف يصونون أماكنهم المقدسة . فتسلح المسلمون شيباً وشباناً . وهاجموا البطريركية وعلى رأسهم المتسلم سليمان أفندى وكان هذا من قبل يهودياً ، فاهتدى بدين الإسلام ؛ كما كان معهم موسى بك الغزاوى رئيس البنادق والأسلحة ، وقائد حامية القدس . فسادت الفوضى فى المدينة . وحل بالنصارى كرب شديد ؛ ولا سيما الروم ؛ فقد صودرت أسلحتهم ، وأمروا بلبس السواد ، واستخدموا بنقل المدافع من مكان إلى مكان . ورفعت الضرائب المطلوبة منهم من ستين ألف قرش إلى مئة ألف . وكاد الرعاع يفتكون — بتحريض المتسلم — بجميع المسيحيين ؛ لولا أن درويش باشا والى الشام قد تلافى الأمر . وكذلك فعل أفندية القدس وأعيانهم المسلمون الذين راحوا يحثون الشعب الهائج على السلم والسكينة . وأذاعوا بياناً مشتركاً أمضوه كلهم طالبين عدم تصديق الشائعات التى يذيعها المغرضون ، مستنكرين الاعتداء على المسيحيين الذين جاء ذكرهم فى القرآن بأن « منهم قسيسين ورهباناً » وأنهم أقرب مودة للذين آمنوا من اليهود . وهكذا هدأت الثورة ، وعادت المياه إلى مجاريها .

الاضطرابات فتنة (١٨٢٤ م) . ورفض المقدسيون أن يدفعوا للجباة الضرائب التى طلبوها منهم ؛ لا ، بل وطردوهم من منازلهم . وكذلك فعل الفلاحون فى قراهم . ولم يستطع المتسلم ، ولا الوالى قمع الفتنة . ولم يكن فى القدس يومئذ سوى ستين جندياً . فأرسل عليهم مصطفى باشا جيشاً قوامه خمسة آلاف رجل . وجاء هو معهم . فهبط نابلس أولا . وقضى فيها عشرين يوماً ، تمكن خلالها من تحصيل جميع الأموال المتأخرة . ولما سمع أهالى جبل القدس بما جرى فى نابلس هجروا قراهم ، واتخذوا المغاور والكهوف ، فى الجبال والأودية مأوى لهم (١٨٢٥ م) .

ولما وصل الباشا إلى القدس ، لم يخرج أحد من الأهلين لاستقباله . ولم يتقدم أحد منهم لدفع ما عليه من المال . فغضب ، وأصدر أمره للجند بمصادرة أموالهم وتخريب أملاكهم . ولكن المنازل كانت كلها خاوية . وليس فيها ما يمكن أن يصادر .

وما كاد الباشا يرحل عن المدينة حتى رجع السكان إلى منازلهم ، وأعلنوا الثورة من جديد ، وهاجموا القلعة ، فاستولوا عليها ، وأسروا كل من كان فيها ، وجردوهم من سلاحهم ، وراحت أعلام الثائرين تخفق فوق البرج والأسوار .

ونجا المستلم بنفسه ، فرحل من المدينة بعد أن سمح له الثوار بذلك . وكان بإمكانهم أن يقتلوه . وكذلك فعلوا بموسى بك قائد الجيش ، الذى أراد ، بعد أن انتهى من حملته التأديبية فى بيت لحم ؛ أن يدخل القدس ؛ فمنعه سكانها ، وأسمعوه من قوارص الكلم ما جعله ييأس وقد قفل راجعاً إلى الشام .

ليس هذا فحسب . بل جرد المقدسيون من السلاح جميع الأتراك الذين كانوا فى المدينة . وبكلمة أخرى ضيقوا الخناق على كل شخص لم يكن عربياً من سكان المدينة . وعهدوا إلى اثنين من زعمائهم ليديروا المدينة ويحولوا دون وقوعها فى شرك الفوضى وهما : يوسف عرب الجبجاب وأحمد آغا الدزدار .

فعمل هذان الزعيمان على تمكين أواصر المودة بين المسلمين والمسيحيين ، وألغيا الأعشار والضرائب الأخرى التى فرضت عليهم ، وكانوا يعتبرونها حملا ثقيلا .

وما كاد خبر هذه الثورة يصل إلى مسامع السلطان محمود ، حتى أصدر أمره بوجوب إخضاع المقدسيين الثائرين بأى ثمن كان . فأمر عبد الله باشا (١٨٢٦ م) أن يذهب من فوره إلى القدس ، وأن يصطحب معه كل ما لديه من جند وعتاد ، وأن يسترد ما فقدته الحكومة فى هذه المدينة من هيبة ونفوذ . وقابل سكان بيت المقدس الجيش الزاحف بقلوب ملؤها الإيمان . فرفضوا الإنذار الذى وجهه إليهم رسول عبد الله باشا المعروف بـ (الكهيا) قائلين : إنهم أقسموا ألا يعدلوا عن ثورتهم ، وألا يستسلموا للسلطان ما دام فى مدينتهم أجنبى واحد . لا فرق فى نظرهم بين شرقى أو غربى ... وبين تركى أو ألبانى ... بين مسلم أو غير مسلم . . . وإنهم لعلى استعداد للموت فى سبيل وطنهم .

وكانوا قبل وصول الجند ، قد سدوا أبواب المدينة بالحجارة . ولما أطلق الجند عليهم النار ، قابلوها بنار مثلها . لا ، بل أطلقوا من أعلى موضع فى القلعة ، نيران المدافع التى كانت فى حوزتهم . وظلت الحرب سجالا بينهم وبين الجند سبعة أيام وسبع ليال . وفى اليوم الثامن كان الجند الذين أرسلهم عبد الله باشا مدداً لحامية القدس قد وصلوا . وكانوا مزودين بمدافع أخرى منها مدفع كبير وثقيل . فراحت القنابل تتساقط فى وسط الأحياء والمنازل الآهلة بالسكان . وكانت ذخائر الثائرين ومؤن السكان بوجه عام قد نفدت . والجوع كاد يقضى عليهم . والخوف كان قد استولى على النساء والأطفال . فقرروا الاستسلام مشترطين إلغاء الضرائب الجديدة وإعلان العفو العام ، ومنع الجند من التدخل فى شؤون المدينة . وكان لهم ما أرادوا .

ولما تسلم عبد الله باشا مفاتيح القلعة أقام فيها ثلاثمئة جندى . وراح هؤلاء يسيطرون على المدينة كما كانوا من قبل (١٨٢٧ م) . كما راح عبد الله باشا

يوقع أوامره بوصفه والى صيدا ومصر والعريش وغزة والقدس ونابلس وجنين .

وما كادت الثورة تهدأ فى القدس على يد عبد الله باشا (١٨٢٧ م) حتى أعلن محمد على باشا والى مصر الحرب على السلطان . وأرسل لمقاتلته فى بر الشام جيشاً بقيادة ولده إبراهيم باشا . فاحتل هذا القدس وسائر أعمال فلسطين (١٨٣١ م) كما احتل سوريا وسائر بلاد الأناضول ووصل إلى كوتاهية ، وكاد يحتل الآستانة ؛ لولا تدخل الدول الأوربية . ولما اصطلح الفريقان جعلت البلاد الواقعة بين أطنة وغزة ولاية تابعة لمصر . ولهذا دخلت القدس فى حوزة البيت العلوى .

القدس وإبراهيم باشا
(١٨٣١ — ١٨٤١ م)

قلنا فى آخر الفصل الذى سبق إن محمد على باشا والى مصر أعلن العصيان على تركيا فى عهد السلطان محمود الثانى ، وإنه أرسل لمقاتلته فى بر الشام جيشاً بقيادة ولده إبراهيم باشا ، فاحتل هذا القدس (١٨٣١م) وسائر أعمال فلسطين . كما احتل سوريا وسائر بلاد الأناضول ، ووصل إلى كوتاهية ، وكاد يحتل القسطنطينية عاصمة بنى عثمان ، لولا تدخل الدول الأوربية[1] . وإن الفريقين بعدئذ اصطلحا (٢٥ نيسان ١٨٣١ م) واتفقا على أن تكون البلاد الواقعة بين أطنة وغزة ولاية تابعة لمصر . وهكذا دخلت القدس فى حوزة البيت العلوى .

---

(١) (البطل الفاتح إبراهيم) لداود بركات ١٣٩ ، ١٤٠ .

لم يمض على وجود إبراهيم باشا فى فلسطين سوى بضعة أشهر ، حتى قامت ثورة فيها ، وكانت القدس من أهم مراكز الثورة . ولقد ذهب الباحثون فى تفسيرها مذاهب شتى . منها أن الأهلين كانوا ، منذ البداية ، ينظرون إلى الجيش المصرى نظرة الغاصب المحتل . ومنها أن هذا الكره ما نشأ إلا عند ما أصدر محمد على باشا أوامره لابنه إبراهيم باشا كى يجمع السلاح من الأهلين ويفرض بعض العوائد والرسوم الجديدة ، ويدعو إلى التجنيد الإجبارى فى البلاد. ومن رأى القائلين بهذا القول أن إبراهيم باشا كان مخالفاً لرأى أبيه فى هذا الموضوع ، وأنه حذره من عواقبه ، إلا أنه اضطر فى النهاية إلى الإذعان ، ففعل ما فعل ، ولجأ إلى الشدة فى فعاله ، مما قد أدى إلى الثورة .

كان أول عمل قام به إبراهيم باشا أن أصدر أمره إلى سكان القدس فى (٢٥ نيسان ١٨٣٤ م) طالباً منهم أن يتجند واحد من كل خمسة من شبانهم . وفى قول آخر واحد من كل عشرة رجال . وكذلك فعل مع باقى البلدان . فكان على مدينة القدس أن تقدم للجيش مئتى رجل وعلى سكان القضاء أن يقدموا ثلاثة آلاف رجل . وكذلك قل عن سكان الأقضية الأخرى كنابلس والخليل .

وأمر إبراهيم باشا بجمع السلاح من أى نوع كان ومن جميع الطبقات . وعمل على نزع النفوذ من جميع الزعماء وأصحاب الإقطاعات . وراح ينفى من البلاد كل من حدثته نفسه بإهمال الأوامر وعدم الطاعة . فكانت نتيجة هذه التدابير أن ارتاح لها المسيحيون واليهود ، وغضب المسلمون . واستغل الأتراك الفرصة ، فراحوا يحرضون المسلمين على الثورة ، فثاروا .

وما هى إلا عشية أو ضحاها حتى كانت نار الثورة قد اشتعلت فى نابلس والخليل وصفد وغزة ويافا والصلت وفى كل مكان . وأما فى القدس نفسها فقد انعدم الأمن ، وسادت الفوضى ، واختفى النصارى فى أديرتهم واليهود فى

كنائسهم . واغتنم الزعماء فرصة سفر إبراهيم باشا إلى يافا فعقدوا فى ٢٨ نيسان ١٨٣٤ م اجتماعاً حضره مشايخ القرى المجاورة وقرروا إعلان الثورة .

فى ٨ آيار حاصروا القدس . وفى اليوم التالى ٩ آيار ، أتتهم نجدة من نابلس والخليل فأصبح عددهم كبيراً . وقيل إن عدد الثائرين بلغ يومئذ عشرة آلاف . كلهم مسلحون . وراح هؤلاء يقاتلون الجند المرابطين فى القلعة ، وعددهم ألف ، كان إبراهيم باشا قد تركهم هناك بقصد الحراسة . وظلوا كذلك بضعة أيام . والتقى الفريقان ، الجند والثوار ، فى شوارع المدينة ، فاقتتلوا قتالا عنيفاً . وكادوا ينتصرون على الجند . لولا أن سرت بينهم فى تلك اللحظة شائعة تقول إن إبراهيم باشا فى طريقه إلى القدس مصطحباً معه جيشاً لجباً . فانكسرت معنوياتهم . وراحوا يهربون ، تاركين وراءهم ستة وستين قتيلا ، وراح الجند بعدئذ يهدمون الحوانيت والدكاكين ، وينهبون كل ما وقعت عليه أيديهم من أمتعة السكان وأموالهم . وألقى الجند القبض فى اليوم التالى ، ١٠ آيار ، على أعيان المدينة ، وسجنوهم فى القلعة . فاشتعلت النار من جديد . وركضت نابلس لنجدة أختها القدس ، فأمدتها بألفى مقاتل . فخشى اليكباشى الآمر ، وانزوى هو وجنده فى القلعة . بعد أن أمر بإغلاق أبواب السور . ولكن المقدسيين الذين كانوا فى داخل المدينة فتحوا الأبواب للثوار . ودخل هؤلاء المدينة . وساروا نحو القلعة . وكان يقودهم إبراهيم أبو غوش ، فوقع صدام عنيف بين الأهلين والجند . وصب هؤلاء نيران مدافعهم من القلعة على الأهلين . ودام القتال ثلاثة أيام . فسادت الفوضى فى المدينة ، وساد معها الخوف والمرض والجوع .

وكانت أخبار هذا القتال قد وصلت إلى إبراهيم باشا وهو فى يافا . فطلب فى الحال من أبيه النجدة . فأتته هذه مؤلفة من تسعة آلاف مقاتل . سار بهم فوراً إلى القدس يبغى الانتقام (٢٤ آيار ١٨٣٤ م) .

واتصل الخبر بالثوار ، فلم يجزعوا . ولا وهنت عزائمهم بل راحوا يستعدون

لملاقاة إبراهيم باشا وجنده ، عند الأبواب ، وفوق الأسوار . وكمن له الفلاحون الثائرون فى الكهوف والجبال المطلة على الأودية ولا سيما عند باب الواد ، فعوقوا تقدمه . وقتلوا ألفاً وخمسمئة من جنده .

ولكن ، تمكن إبراهيم باشا أخيراً ، ورغم جميع الحوائل ، من الوصول إلى القدس . فحط رحله على جبل صهيون . وراح يرسم الخطط للقضاء على الثورة . فخف لاستقباله اللاتين والأرمن واليهود وفريق من الروم الأرثوذكسيين . ولم يقابله أحد من المسلمين . إذ كان هؤلاء قد فروا من باب الأسباط مصطحبين معهم عائلاتهم وأمتعتهم خشية الانتقام . وعبثاً حاول إبراهيم باشا أن يقنعهم بالعودة إلى منازلهم ، قائلا إنه معتزم العفو عنهم . فلم يلبوا نداءه .

ليس هذا فحسب . بل راحوا يوزعون النشرات داعين إلى الثورة ، ناقدين بصراحة وجرأة أعمال الباشا . وتنادوا بعد ذلك للاجتماع فى مخماس ، فبحثوا الطرق الواجب اتباعها لمواصلة القتال .

ولما علم الباشا بأمرهم . ساق عليهم جيشاً قوامه ثلاثة آلاف رجل . وكان هو فى الطليعة فالتقى الجمعان على مقربة من مخماس . واقتتلا . فكان النصر حليف الجيش . وانهزم الثوار تاركين وراءهم ثلاثة آلاف قتيل وخمسمئة أسير . وساق الأسرى أمامه مكبلين بالحديد . ولما عاد إلى القدس ودخلها استقبله النصارى واليهود استقبال الفاتحين .

ولم يفت انتصاره هذا فى عضد الثوار . بل راحوا يجمعون ما تشتت من شملهم . ويتنادون للقتال . وجرت اصطدامات عديدة بينهم وبين الجند : مرة فى بيت جالا (٣١ آيار) وأخرى على مقربة من مار إلياس (٤ حزيران) . وفى الأودية والتلال الكائنة إلى الجنوب من بيت لحم ، وفى أرطاس . وفى كل مكان . وذلك كله قد فتّ فى عضد الباشا ، فأصبح لا يدرى ماذا يفعل . وقد ازداد حيرة عند ما أتته أنباء المدن الأخرى . فعلم منها أن نار الثورة ازدادت

اشتعالا فى نابلس وصفد وعكا وطبريا وفى يافا واللد وفى الخليل والكرك . وأيقن أن القوة التى كانت تحت تصرفه يومئذ (١١ حزيران ١٨٣٤ م) وهى لا تزيد على ستة آلاف جندى لم تعد كافية لإطفاء تلك النار . ولهذا أرسل إلى أبيه تقريراً عن الحالة ، وراح ينتظر تعليماته ، منزوياً فى قلعة القدس .

أرسل محمد على باشا إلى ابنه نجدة مؤلفة من ثلاث كتائب من المشاة وكتيبتين من الفرسان ، وألف من البدو . وأبحر هو من الإسكندرية إلى يافا ، حيث اجتمع بابنه إبراهيم باشا . وبعد أن تشاور الاثنان فيما يجب عمله ليقضيا على الثورة ، عاد هو إلى مصر ، وبقى ابنه ليتم مهمته . ولما عاد إلى القدس (٢١ حزيران) كان فى صحبته ثلاثون ألف جندى . وكان معه عشرة مدافع كبيرة ، وخمس من قاذفات القنابل . فخبت فى القدس نار الثورة من تلقاء نفسها ، دون أى قتال .

إنها (أى نار الثورة) وإن كانت قد خبت فى القدس إلى حين ، إلا أنها عادت فاشتعلت فيها وفى كل مكان ، ورغم أنه اعتقل اثنين من زعماء الثوار فى القدس وقطع رأس أحدهما فى باب العمود والثانى فى سوق الحبوب ، إلا أن هذه التدابير ما كانت لتقلع روح التمرد والعصيان والكره من أفئدة الأهلين .

ولقد زاد الطين بلة ما أصاب الجند والأهلين من ضنك بسبب الهيضة (الكوليرا) التى انتشرت فى القدس وفى سائر أنحاء فلسطين (١٨٣٨ — ١٨٣٩م) والتى مات من جرائها خلق كثير ، وما أصاب إبراهيم باشا وجيشه فى دمشق وفى سائر أعمال الشام ؛ مما لا يدخل فى نطاق بحثنا ، مما حدا به للانسحاب من هذه البلاد .

وقد انسحب منها (١٨٤١ م) بعد أن أقام فيها عشرة أعوام . عاد إلى مصر تاركاً وراءه عدداً غير قليل من المصريين الذين رافقوه فى حملته . وقد استوطن هؤلاء بعض المدن والقرى الفلسطينية فصاروا منها .

الآن وقد انتهينا من ذكر الحروب والثورات التى قامت فى هذه البلاد على عهد إبراهيم باشا ، نود أن نأتى ، بوجه الإيجاز ، على ذكر المنشآت التى أنشئت فى القدس وفيما حولها من الضياع ، خلال ذلك العهد ، فنقول :

على عهده أنشئ (١٨٣٤ م) جانب من القشلاق الكائن عند باب الخليل . وجددت عمارة السراى القديمة الكائنة على طريق الجسمانية . وأنشئت (طاحون الهواء) الكائنة غربى المدينة ، وهى أول طاحون يطحن فيها المقدسيون قمحهم (١٨٣٩ م) . وبنيت (الزاوية الإبراهيمية) الكائنة إلى الشمال من ضريح النبى داود على جبل صهيون . وعمرت قلعة فى وادى الجوز . وأخرى بين هذا الوادى وجبل الطور . وأنشئت سلسلة من القلاع لحراسة الطريق بين يافا والقدس .

وتطورت البلاد على عهده تطوراً جديراً بالذكر إذ أنه كافح الرشوة ، واهتم بطرق المواصلات ؛ فأنشأ مسافات غير قليلة من الطرق ، وأتاح للتجار الأجانب البيع والشراء فى داخل البلاد ، وألغى الضريبة التى كان حراس الكنيسة يجبونها منذ عهد صلاح الدين . كما أمر بإلغاء الخمس من الحاصلات الزراعية . ووزع البذار على الفلاحين . وشجع الناس على غرس الأشجار المثمرة . وأدخل إلى البلاد أنواعاً جديدة من الزراعة . كما أتى بعدد غير قليل من عرب البادية وأسكنهم فى القدس والسهول الخصبة .

ولقد ساوى بين المسلمين واليهود والنصارى . فأعفى النصارى واليهود من عادة النزول عن دوابهم إذا ما صادفوا مسلماً فى طريقهم . والفرق الوحيد الذى رضى به أنه كلف النصارى أن يدفعوا الجزية لقاء تجنيد المسلمين .

وكذلك قل عن اليهود . فإنه وإن كان قد ساوى بينهم وبين العرب من سكان البلاد ، إلا أنه قاوم الخطط التى وضعوها للاستعمار . يدلك على ذلك ما جاء فى مذكرات السير موسى حايم مونتفيورى أحد كبار اليهود الإنجليز

(١٨٣٦ م) الذى قال إنه عبثاً حاول أن يقنع إبراهيم باشا وأباه محمد على أن يؤجراه أرضاً مساحتها خمسون فداناً ومئتى قرية من قرى فلسطين لخمسين عاماً .

ولقد أراد اليهود[١] يومئذ (١٨٣٧ م) أن يسمح لهم بشراء الأملاك والأراضى الزراعية وتعاطى الحرث والزرع وتعاطى البيع والشراء وبيع الأغنام والأبقار وإنشاء المصابن والمعاصر فاعترض أعضاء مجلس القدس الشريف على هذا الطلب الذى تقدم به وكيل طائفة السكناج بالقدس ، معتبرين ذلك سابقة ليس لها مثيل . هذا فضلا عن مخالفته لحكم الشريعة . ولما رفع الأمر إلى محمد على باشا أصدر هذا موافقته على ما جاء فى قرار المجلس . أصدرها بعد أن استشار ولده إبراهيم باشا . ولم يسمح لليهود يومئذ إلا بتعاطى التجارة ، على أن لا تتعدى حدود البيع والشراء .

القدس والأتراك العثمانيون (للمرة الثانية)

(١٨٤١ م — ١٩١٧ م)

إن السنين العشر (١٨٣١ — ١٨٤١ م) التى قضاها إبراهيم باشا فى هذه البلاد كانت طافحة بالحروب والثورات . ولهذا تنفس المقدسيون الصعداء عند ما جلا المصريون عن البلاد ، ورأوا أن مدينتهم عادت إلى أحضان بنى عثمان . ولم يكن الشعور القومى قد نضج فيهم ، والنزوع إلى الاستقلال قد نما .

وكانت القدس يومئذ تابعة لأيالة صيدا . وكانت هذه ترجع فى أوامرها إلى مقر الأيالة العام فى بيروت ، وكان يقوم على رأس الحكم فى القسطنطينية

(١) (مجموعة الأصول العربية لتاريخ سورية فى عهد محمد على باشا) جمعها الدكتور أسد رستم أستاذ التاريخ الشرقى فى جامعة بيروت الأميركية .

عاصمة المملكة العثمانية السلطان عبد المجيد بن السلطان محمود الثانى الذى تولى الحكم فى ١٨٣٩ .

فوضع هذا أصول التجنيد الإجبارى . . . . ونظم المحاكم ومنح الأهلين حرية التصرف ، وأمر بالتساوى بين رعايا الدولة ورعايا الدول الأجنبية ، وطارد الرشوة . . . وكان عدد سكان القدس فى ذلك الحين عشرين ألفاً منهم ألف من المسيحيين . وانتظم المسيحيون فى الجندية ، مثلهم فى ذلك مثل المسلمين . ولقد أنفق السلطان على عمارة الحرم القدسى عشرين ألف ليرة تركية (١٨٦٠ م)

وقامت على عهده (١٨٥٣ م) حرب القرم بين روسيا وتركيا . قامت من أجل الأماكن المقدسة . وكان النصر فيها حليف تركيا (١٨٥٦ م) . فابتهجت القدس بذلك النصر[1] . وراحت الدول تتسابق فى بسط نفوذها على البلاد ، ولا سيما إنكلترا وفرنسا اللتان وقفتا إلى جانب تركيا فى حربها مع الروس . وثار سكان بيت المقدس على متصرفهم كامل باشا لأنه رضى بأن ترفع تلك الدول أعلامها على دور القناصل . وقيل إنهم مزقوا العلم الفرنسى (١٨٤٣ م) وكانت الحكومة العثمانية على درجة قصوى من الضعف حتى إنها لم تستطع الضرب على يد التجار الاستغلاليين . فارتفعت الأسعار إلى درجة لا تطاق (١٨٥٣ م) .

وكان أهل القدس إلى ذلك الحين يعيشون ضمن الأسوار . ورحنا بعد ذلك التاريخ نسمع أنهم راحوا يبنون العمارات خارج السور (١٨٥٨ م) .

وتولى السلطنة ، بعد عبد المجيد ، أخوه السلطان عبد العزيز (١٨٦٠ م) . وكانت القدس فى أوائل عهده (١٨٦٠ م) متصرفية تابعة لولاية سورية ، مرجعها الشام . ثم جعلت متصرفية مستقلة (١٨٧١ م) تفاوض الباب العالى رأساً . وعلى عهد عبد العزيز أنشئت الطريق التى تربط يافا بالقدس (١٨٦٧م) والطريق التى تربط القدس بنابلس (١٨٧٠ م) . ورصفت شوارع القدس

(١) J. Finn P. 362

القديمة وأسواقها بالبلاط (١٨٦٣ م) ومنع إنشاء المساطب أمام الدكاكين . وعلى عهده أيضاً (١٨٦١ م) عرف الأتراك وعرف معهم سكان بيت المقدس الطربوش[1] ولبسوه . وكان عدد هؤلاء السكان يومئذ ثمانية وستين ألفاً . وأنفق على عمارة الحرم وزخرفته ثلاثين ألف ليرة تركية . وبنى المسجد العمرى على مقربة من كنيسة القيامة .

ولما خلع عبد العزيز أقيم مكانه السلطان مراد الخامس بن عبد المجيد (١٨٧٦ م) . ولكن هذا لم يمكث على العرش أكثر من بضعة أيام بسبب ضعف عقله . .

ولما خلع السلطان مراد اعتلى سدة الملك أخوه السلطان عبد الحميد الثانى (١٨٧٦ م) . وعلى عهده حدثت فى البلاد حوادث جسام . نذكر منها ما يلى :

منح السلطان شعبه ، فى بداية الأمر ، دستوراً . وأمر (١٨٧٧ م) . بانتخاب برلمان أسماه (مجلس المبعوثين) . ومثل القدس فى هذا المجلس رجل من رجالاتها الأبرار هو المرحوم يوسف ضيا باشا الخالدى . وأكد فى دستوره أنه لا يفرق بين دين ودين . وإن كان قد أعلن أن دين الدولة هو الإسلام ، ولسانها (التركى) ، والخلافة فى بنى عثمان . وكل إنسان حر فى تصرفاته . ولكنه عاد فاستّرد هذه المنحة . فأغلق البرلمان ، وألغى الدستور (١٨٧٨ م) . وراح يدير البلاد وفق مشيئته الخاصة . ونفى الأحرار الذين طالبوا بالدستور والحرية . وكانت الحالة فى فلسطين بوجه عام وفى القدس بوجه خاص ، تسير من سيىء إلى أسوأ فى جميع الميادين الزراعية والاقتصادية والإدارية .

وعلى عهده قامت حرب بين روسيا وتركيا (١٨٧٧ م) . وصدر قانون (١٨٨٢ م) . يحرم هجرة اليهود إلى فلسطين وشراءهم الأراضى فيها . ثم عدل

---

(١) أصله (سربوش) وهى كلمة فارسية معناها (لباس الرأس) وقد انتقل الطربوش إلى تركيا من بلاد اليونان . وهذه أخذته من مدينة فاس من أعمال مراكش .

هذا القانون ، فسمح لليهود أن يدخلوا فلسطين بقصد العبادة شريطة ألا يبقوا فيها أكثر من ثلاثة أشهر وصدر قانون يمنع تجارة الرقيق (١٨٨٩ م) .

وأنشئت السكة الحديدية بين يافا والقدس (١٨٩٢ م) . وأنشئ المستشفى البلدى الكائن غربى المدينة عند الشيخ بدر (١٨٩١ م) . وأنشئ برج عال على السور فوق باب الخليل (١٩٠٩ م) . وسبيل على مقربة من الباب المذكور (١٩٠٧ م) . وجددت عمارة السبيل المعروف بسبيل قايتباى (١٨٨٢ م) الكائن فى ساحة الحرم على مقربة من باب القطانين . ومنع إدخال التلفون (١٩٠٥) واستعمل اللاسلكى .

وبنيت (المدرسة الرشيدية) الكائنة تجاه السور عند باب الساهرة (١٩٠٦م).

وأنفق على عمارة الحرم القدسى ثلاثون ألف ليرة عثمانية . ورصفت شوارع القدس رصفاً جديداً (١٨٨٥ م) هو الذى نراه فى معظم شوارع المدينة فى يومنا هذا .

وزار القدس على عهده إمبراطور الألمان غليوم (١٨٩٨ م) ففتحوا له ثغرة فى السور بجانب باب الخليل . وازداد تنافس الدول الأجنبية بالقدس ففتحت فيها قنصليات كثيرة أجنبية . ومع ذلك وبالرغم من وجود عدد قليل من الموظفين الأتراك ؛ فقد كانت الكلمة العليا فى القدس للعرب سكان البلاد الأصليين ، ولا سيما المسلمين منهم . وما كان بإمكان الأجانب أن يملكوا شيئاً إلا بإذن من المتصرف التركى وكان على هذا أن يرجع إلى (مجلس الإدارة) المؤلف من عدد من الموظفين وآخرين من مشايخ البلاد .

ومع هذا كله عرف عهد السلطان عبد الحميد بالظلم والاستبداد . وما كان بإمكان أحد أن يبحث شؤون السياسة أو يطرى كلمة (الحرية) . وظل الأمر كذلك إلى أن تألفت فى البلاد جمعية أسموها (جمعية الاتحاد والترقى) ، وقامت بانقلاب (١٩٠٨ م) أعلن على أثره الدستور ، واجتمع البرلمان العثمانى . وكان

سنجق القدس ممثلا فيه بثلاثة أعضاء هم : سعيد بك الحسينى وروحى بك الخالدى من القدس وحافظ بك السعيد من يافا . وحاول السلطان أن يراوغ . فأسقطوه ، وأقاموا مقامه أخاه السلطان محمد رشاد الخامس (١٩٠٨ م) . ومثل قطاع القدس فى البرلمان الذى اجتمع على عهده (١٩١٤ م) كل من روحى بك الخالدى وعثمان أفندى النشاشيبى وأحمد عارف أفندى الحسينى . ثم أعيد الانتخاب ففاز بالأكثرية سعيد أفندى الحسينى وراغب أفندى النشاشيبى وفيضى أفندى العلمى .

وعلى عهد هذا السلطان أعلنت الحرب الكونية الأولى (١٩١٤ — ١٩١٧م) وخاض الأتراك غمارها إلى جانب حلفائهم الألمان . وراح الجيش التركى يحارب الإنجليز وحلفاءهم الروس والفرنسيين فى خمس جبهات هى : القفقاس ، والدردنيل ، والعراق ، ورومانيا ، وفلسطين . ولكنهم خسروها . فخسروا معظم ما كان فى أيديهم . ومنها القدس (١٩١٧ م) . فاحتلها الإنجليز (٩ كانون أول ١٩١٧ م) .

قبل أن ننتقل إلى الفصول التالية من هذا الكتاب نرى لزاماً علينا أن نصف القدس فى العهد التركى من النواحى الإدارية والعمرانية والتجارية ، والاقتصادية والاجتماعية ، فنقول :

كانت القدس فى العهد التركى مركزاً لقطع واسع يسمى (سنجق القدس) وهو مؤلف من خمسة أقضية ، وهى : (١) قضاء القدس (٢) قضاء يافا (٣) قضاء الخليل (٤) قضاء غزة (٥) قضاء بئر السبع . وهناك أربع عشرة ناحية[1] .

---

(١) خمس منها (أى من النواحى) تابعة للقدس ، وهى : بيت لحم . رام الله . سفا . عبوين . أريحا . وناحيتان تابعتان ليافا . وثلاث نواح تابعات لغزة . وهى : خان يونس . الهجدل . الفالوجة . وناحيتان للخليل . وهما : بيت غطاب . بيت جبرين . وناحيتان لبئر السبع . وهما : المليحة . عوجا الحفير .

وثلاثمئة وتسع وسبعون قرية[١]. وخمس قبائل كبرى[٢]. ويقوم على رأس كل قضاء (قائمقام) وعلى رأس القطاع كله متصرف . وكان هذا يخابر وزير الداخلية فى الآستانة رأساً، هذا فى الشؤون السياسية ، وأما من حيث الشؤون المالية فقد كانت هذه تدار من قبل وزارة المالية. وكان قاضى القدس ، على عهد الأتراك العثمانيين ، الكل فى الكل[٣] من حيث السيطرة والحكم فى جميع الشؤون الإدارية والمذهبية والحقوقية والجزائية[٤] . وكان معظم الموظفين من أبناء البلاد ، خلا الحاكم الأكبر ورؤساء بعض المصالح العمومية ؛ فقد كانوا من الأتراك . والنفوذ كله كان بيد الزعماء والأفندية ، وذوى الإقطاع من مشايخ البلاد . وكان فى القدس مجلس شورى (١٨٤٠ م) مؤلف من عدد من وجوه

---

(١) مئة وست وعشرون منها (أى من القرى) تابعة للقدس . ومثل هذا العدد من القرى ليافا . وخمس وسبعون قرية لغزة . واثنتان وخمسون للخليل .

(٢) هى (أى القبائل) : العزازمة . الترابين . التياها . الحناجرة . الجبارات .

(٣) ارجع إلى سجلات المحكمة الشرعية فى القدس . ولا سيما ذوات الأرقام ١٢ ، ٤٣ ، ٤٩ ، ٥٥ ، ٢١٣ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ .

(٤) فلم تكن صلاحيته (أى القاضى) منحصرة فى الزواج والطلاق والنفقة وما إلى ذلك من الأحوال الشخصية ؛ بل كانت تشمل مختلف الشؤون كالوقف والتجارة والرهن ودعاوى الزرع وسرقة المواشى وقضايا الخيل . وكان فى الوقت نفسه مسؤولا عن إدارة المساجد والتكايا والمقابر والزوايا . وعن دعاوى القسمة والإفراز ، وتسجيل الوكالات والكفالات والشركات . ووضع اليد ونزعها . ومسائل القروض والديون والأمانات . ومراقبة الموازين والمكاييل والمقاييس . وهو الذى كان يعين المحال التى يجوز فيها البيع والشراء ، ويحدد الأسعار . وينظر فى قضايا العرض والرق . ويراقب تجارة المشروبات الكحولية . ويأذن بالبناء . وينظر فى الدعاوى الحقوقية مهما تبلغ قيمتها ، والدعاوى الجزائية على اختلاف أنواعها من الضرب البسيط إلى السب والشتم . . إلى السرقات . . إلى القتل . . ويحكم بالعقوبات من أدناها إلى أقصاها . . حتى وبالإعدام . وهو الذى يقيل رؤساء الطوائف المختلفة من مناصبهم . . ويعينهم . . ويستبدل بهم غيرهم .

ليس هذا فحسب . فإن قاضى المسلمين فى القدس كان يستقبل قناصل الدول الأجنبية فى ديوانه . فيقرأ أوراق اعتمادهم . . ويعترف بتمثيلهم . . ويمنحهم الإذن بمباشرة عملهم . . ويحميهم . . .

المدينة وممثلى الطوائف المختلفة ، كما كان فيها مجلس عمومى (١٩١١ م) مؤلف من عدد معين من ممثلى الأقضية (القدس ويافا والخليل وغزة وبئر السبع) وكان لواء القدس يمثل فى البرلمان العثمانى (١٩٠٨ م) بنسبة ثلاثة نواب ، اثنان من القدس والثالث من يافا . والبرلمان مؤلف من مجلسين «مجلس للمبعوثين» ينتخبه الشعب وآخر « للأعيان » يعينهم السلطان .

وكانت للقدس (بلدية) وكانت هذه عند تكوينها (١٨٦٣ م) محدودة الموارد ذات ميزانية لا تتعدى الخمسمئة ليرة عثمانية ، ثم انتظمت إيراداتها (١٩٠٨ م) ، وارتفعت إلى عشرة آلاف ليرة عثمانية . وكانت عند الاحتلال البريطانى (١٩١٧ م) خمسة عشر ألف ليرة . ولقد كان فى مدينة القدس (١٨٧٦ م) اثنان وعشرون شرطياً كلهم مسلمون . وكان اقتناء السلاح مباحاً لجميع السكان .

وكثيراً ما كان الأمن يفقد فى المدينة ، إلا أنه كان فى داخلها ، وفى أغلب الأحيان مستتباً للغاية . وكان الناس فى راحة وهناء بال أكثر من أى زمان مضى ، فالمساكن متوفرة ، رخيصة الأجور . وكذلك قل عن أسعار الحاجات ؛ فقد كانت هذه رخيصة ومتوفرة للجميع . وكان قاضى المسلمين بالقدس هو الذى يحدد الأسعار . ولقد رأيناه يحدد (سنة ١٨٦٢ م) ٤٨ بارة للرطل الواحد من الزيت الممتاز ، و ٦٥ للسمن العنانى و ٨ بارات للحم البقر و ٤ بارات للكنافة المخروطة و ٤ بارات للقطايف و ٦ بارات للدقيق . وبيع الرأس الواحد للغنم بقرش ونصف القرش . وبيعت دار فى حارة الواد بعشرين قرشاً . كما بيعت دار مثلها فى حارة النصارى بمثل هذا الثمن وهذه تشتمل على أربع غرف وساحة وصهريج . وبيعت دار مؤلفة من طابقين بباب العمود بثلاثين قرشاً ، وفى باب حطة بخمسة وسبعين قرشاً (١٦١٨ م) .

وكان مهر المرأة يتراوح بين ثلاثة قروش وخمسة وستين قرشاً (١٦١٨ م) :

ثلثاه معجل والثلث مؤجل إلى أقرب الأجلين (الموت أو الطلاق) . وإن هذه المهور وأسعار الحاجات وإن كانت قد ارتفعت قليلا مع الزمن إلا أنها لم تصل فى زمن ما إلى درجة يعجز عنها الجمهور . ومع هذا ورغم انخفاض أسعار المعيشة فقد كانت هناك طبقة من الفقراء . وكانت هذه الطبقة تعيش على الصدقات ، ولهذا كثيراً ما سمعناهم يتحدثون عن (الصرة) التى كانت ترسل من دار الخلافة والسلطنة فى القسطنطينية ؛ وهى عبارة عن مبلغ من المال يوزع لا على الفقراء فحسب ، بل على خدام الحرم وعلى المشايخ والعلماء . وكان المسيحيون الأرثوذكس يتلقون مثل هذا العون من روسيا والدول النصرانية فى أوربا الشرقية ، واللاتين من قداسة البابا ومن الأمم الكاثوليكية .

ولقد كان فى القدس وفيما حولها من الأراضى فى العهد التركى مساحات واسعة من أشجار الزيتون . وكان الزيت فيها كثيراً . حتى إن سكان المدينة اضطروا فى سنة من السنين أن يكبوا الزيت القديم ، ليتمكنوا من إيجاد أوعية كافية للزيت الجديد . وصناعة الصابون فيها كانت رائجة . وكان هناك عدد كبير من المصابن ، يعيش من ورائها عدد كبير من العمال والصناع . وكان الصابون المقدسى يصدر إلى مصر . غير أن هذه الصناعة أخذت تتضاءل بعد سنة ١٨٧٦ م ؛ يوم اكتسحت البلاد أسراب كثيرة من الجراد ، وأتت على قسم كبير من أشجار الزيتون : والبقية الباقية من هذه الأشجار قضى عليها الأتراك عند ما انخرطوا فى الحرب الكونية الأولى (١٩١٤ — ١٩١٧ م) . واحتاجوا إلى وقود يسيرون به قطاراتهم .

واشتهرت القدس فى العهد التركى ، بصناعة العلب والأدوات المدرسية والبضائع الدينية من خشب الزيتون ؛ أو من الصدف ، والشموع المختلفة . وكانت هذه تباع إلى الحجاج الذين يفدون من كل حدب وصوب بقصد زيارة الأماكن المقدسة .

وكانت القدس مركزاً تجارياً هاماً ، يصدر القمح منها إلى إنجلترا وبعض البلاد الأوربية . وكذلك قل عن السمسم والصابون وزيت الزيتون . وأما البضائع التى هى فى حاجة إليها فقد كانت تستوردها من أوربا عن طريق مرسيليا وتريستا. كالبضائع الصوفية والحريرية، والخمور ، والزجاج ، والخشب ، وما إلى ذلك من الأثاث المنزلى . وكانت المعاملات التجارية كلها تجرى عن طريق الأمانة والشرف والاتفاق الشفوى . فلا عقود ، ولا صكوك ، ولا سمسرة ولا تسجيل .

وكان فى القدس (١٨٧٦ م) ألف وثلاثمئة وعشرون دكاناً . يشتغل فيها ١٩٢٠ رجلا يعتبرون من أرباب الحرف والصنائع والمهن : — ٨٠٧ منهم مسلمون و ٥٠١ يهود و ٣٥٧ روم أرثوذكس و ١٤٦ لاتين و ٦٩ أرمن و ٤٠ بروتستانت .

والضرائب التى يدفعها السكان ستة أنواع . هى :

(الويركو والمسقفات) تجبى من أصحاب الأملاك (١٨٨٦ م) بنسبة أربعة فى الألف عن الأراضى وخمسة فى الألف عن الدور المعدة للسكن إذا كانت قيمتها دون العشرين ألفاً ، وثمانية فى الألف إذا كانت فوق العشرين ألفاً ، وعشرة فى الألف عن الدكاكين والدور المعدة للإيجار . ثم أضيف إلى ذلك ستة فى المئة باسم التجهيزات العسكرية (١٩٠٨ م) . وبعد حرب البلقان (١٩١٢ م) أضيف خمسة فى المئة على ضريبة الأراضى لتغطية العجز الذى طرأ على موازنة الدولة . ثم أضيف إليه ٢٥ ٪ باسم الأسطول .

و (العشر) يجبى من أصحاب الأراضى والمزارعين بنسبة عشرة فى المئة من حاصلاتهم الزراعية . ثم زيدت هذه النسبة فجعلت ١٢ ½ فى المئة . وكانت الحكومة التركية تجبى العشر بوساطة الملتزمين ، وجلهم — إن لم نقل كلهم — من أرباب الإقطاع . وكثيراً ما كانوا يظلمون .

و (ضريبة الأغنام) ضريبة قديمة العهد . تجبى عن الأغنام والجمال المعدة

للنقل بنسبة قرش ونصف عن كل رأس من الغنم . ثم زيدت هذه النسبة إلى قرشين ونصف القرش ، فإلى ثلاثة قروش ؛ ثم إلى أربعة ، فخمسة . وأما عن الجمل فكانت الحكومة تحصل فى بادىء الأمر عشرة قروش تركية . ثم زيد هذا المبلغ فأصبح ثلاثة عشر قرشاً و ٢٠ بارة . ويحصل مثل هذا الرسم عن الخنازير . وأما الخيل والحمير والثيران والجمال المعدة للحرث ، والأغنام المولودة فى بحر السنة فقد كانت معفاة من الضرائب .

و (ضريبة التصنع) كانت تجبى من التجار وأرباب الصناعات وأصحاب المهن بنسبة أرباح كل واحد منهم . إلا أنها كانت ضئيلة للغاية . وكانت بمعدل يتراوح بين اثنين وعشرة فى المئة من الدخل السنوى .

و (ضريبة العملة المكلفين) كانت تفرض على كل شخص يتراوح بين العشرين والستين من العمر . وكان على المكلف أن يدفع ستة عشر قرشاً تركياً فى السنة ، أو يشتغل فى تعبيد الطريق ثلاثة أيام .

و (ضريبة المعارف) تجبى بنسبة خمسة فى المئة من قيم المسقفات . وكانت هذه تجبى مع الويركو فى وقت واحد .

و (العسكرية) ضريبة كان الأتراك يحصلونها من الذميين الذين لم يعتنقوا الإسلام ، ويكونون فى سن الجندية ، لقاء إعفائهم من الخدمة فى الجيش . وكانت هذه تحصل بنسبة ٢٨ قرشاً عن كل شخص فى السنة .

وهناك (الجزية) كانت فى أوائل العهد التركى تحصل من أهل الذمة . وكانت هذه تفرض على الأغنياء والمتوسطين والفقراء بدرجات مختلفة . فالغنى يدفع فى السنة أحد عشر قرشاً ، والمتوسط خمسة قروش ونصف القرش ، والفقير قرشين ونصف القرش .

و (ضريبة الغفر) يدفعها الحجاج الذين يفدون إلى البلاد بقصد زيارة الأماكن المقدسة من يهود ونصارى ، يدفعونها عند وصولهم إلى ثغر يافا . وكانت

هذه عبارة عن سبعة قروش أسدية ونصف القرش عن كل شخص . نصفها للدولة والنصف الآخر للأشخاص الذين يراقبون الحجاج فى طريقهم بين يافا والقدس .

ويظهر أن السلطة المركزية فى القسطنطينية كانت تفرض على الزعماء وأرباب البيارات فى القدس ، فضلا عن الضرائب المتقدم ذكرها ، مبالغ يؤدونها إلى الجيش ، وقد بلغت هذه ، سنة ١٨١٣ للميلاد ، ثلاثة عشر ألفاً ومئتى قرش تركى أرسلت كلها للآستانة .

وبلغت واردات سنجق القدس من الضرائب المتقدم ذكرها سنة ١٩١٠ للميلاد ثلاثين ألف ليرة تركية . صُرفت كلها على القدس وقراها : رواتب للموظفين ، ونفقات للطرق والتعليم ، والصحة ، والمستشفى ، ودار الأيتام ، والزراعة ، والشؤون الأخرى . وكانت مالية سنجق القدس المستقل .

وما كان فى القدس ، أثناء الحكم التركى ، أندية ولا جمعيات . ولا كان فيها من يفكر بالسياسة . لا ، بل ذكرنا فى موضع آخر من هذا الكتاب ما كانت عليه القدس فى عهد إبراهيم باشا ، ومقاومة المقدسيين له ، رغم ما قيل عنه بأنه كان يرمى إلى تكوين وحدة بين الأقطار العربية .

وبقى العرب على ما هم عليه من حب للأتراك وتمسك بالفكرة الإسلامية حتى الانقلاب العثمانى (١٩٠٨ م) الذى أقيم على أسس من الحرية والإخاء والمساواة بين جميع عناصر المملكة من ترك وعرب وأرمن ويونان وأكراد وألبان . ولكن سرعان ما انقلبت الآية ، فشعر العرب أن رجال (تركيا الفتاة) لا يريدون بهم خيراً ، لا بل راح هؤلاء يبذلون قصارى جهدهم فى تقدم العنصر التركى عملا بوحى الفكرة القومية الطورانية .

عندئذ بدرت بوادر الخلاف العنصرى بين العرب والترك ، ونما حب الاستقلال فى أفئدة العرب . فتألفت فى أواخر العهد العثمانى جمعيات عربية عديدة .

الآستانة وباريز والقاهرة وفى بيروت والبصرة وبغداد والشام . بعضها كان يعمل بالجهر والبعض الآخر بالخفاء . وكان لبعض هذه الجمعيات فروع فى القدس ، وانضم إليها سواء فى المراكز أو فى الفروع عدد من أبناء بيت المقدس .

وكانت هذه الجمعيات تكتفى فى بادئ الأمر بطلب الإصلاح الإدارى ؛ على أن يمنح العرب بعض الامتيازات فى الإدارة واللغة وفى الخدمة العسكرية . ولما رأى الزعماء العرب أن الأتراك المهيمنين على الإدارة يخاتلون ، راحوا ينادون بصراحة أنهم يبغون الاستقلال ، ولا يرضون عنه بديلا .

فاعتزم الأتراك البطش بهم ، وعهدوا بهذه المهمة إلى أحد قادتهم جمال باشا ، وكانوا قد انتدبوه لقيادة الجيش الرابع فى سوريا (١٩١٤م) ؛ فألف فى «عالية» من أعمال جبل لبنان ديواناً عسكرياً عرف فيما بعد بديوان عالية . وساق إلى هذا الديوان معظم رجال الحركة العربية .

فحوكم هؤلاء ، وحكم على بعضهم بالسجن أو النفى ، وعلى البعض الآخر بالإعدام شنقاً . ولقد نفذ حكم الإعدام بفريق من رجالات العرب فى بيروت ، وفريق آخر فى الشام وفى القدس .

وكان بين الذين أعدموا أربعة من الفلسطينيين هم : على النشاشيبى (من القدس) وأحمد عارف الحسينى وولده مصطفى (من غزة) وسليم عبد الهادى (من نابلس) .

ولم يكتف جمال باشا بعدد الذين شنقهم أو سجنهم ونفاهم من أحرار سوريا وفلسطين ، فقد فرض الحصار على البلاد من الناحية الاقتصادية ، فانقطع القمح عنها ، كما انقطع معظم المواد الغذائية التى كانت ترد إليها من الخارج ، وألم بالبلاد كلها ولا سيما بلبنان ، كرب شديد من جراء هذا الحصار ، فمات على إثره خلق كثير .

ولما كان الظلم مصرعه وخيم . وكان الضغط يولد الانفجار ، فإن ما فعله

الأتراك بالعرب أدى إلى قيام الثورة ، وقد أوقد نارها الشريف حسين بن على (١٩١٥ م) . وما كاد هذا يطلق الرصاصة الأولى حتى لبى نداءه العرب فى مختلف أقطارهم ، وكان بينهم عدد كبير من الفلسطينيين فروا من مدنهم ومن الجيش التركى الذى كانوا قد انتسبوا إليه بعد الحرب. فريق منهم التحق بجيش الشريف رأساً ؛ وفريق التحق بالجيش الإنجليزى المحالف له . وكانت المخابرات قد انتهت بين الشريف حسين وبين مكماهون ، وحصل الشريف بموجبها على عهود رسمية من الإنجليز باستقلال بلاد العرب إذا انتهت الحرب بنصرهم .

وكانت النتيجة أن خسر الأتراك الحرب وانتقلت القدس من أيديهم إلى أيدى الإنجليز . وكان ذلك فى اليوم التاسع من شهر كانون الأول « ديسمبر » سنة ١٩١٧ م ، كما ذكرنا فى موضع آخر من هذا الكتاب .